معاناة الشعراء العشاق في العصر الجاهلي وفاعلية خطابهم الشعري

د. مهـا صـلاح بشرى محمـد عثمان

أ. مساعد- قسم اللغة العربية –
كلية الآداب- جامعة أم درمان الأهلية

مستخلص:

تـأتي أهميـة عـرض الغـزل في العـصر الجاهـلي في أنـه لم يـأت إلا نتاجـاً مـن العاطفـة الجياشـة الصادقـة مـن عـزة النفـس والكـرم اللـذان كانـا يمـلأن صـدور الشـعراء في ذلـك العـصر، فضـلاً عـن الحماسـة والانفعـال القـوي، الـذي لأزمهـم في حلهـم وترحلهـم منـذ نشـأتهم الأولى.تهـدف الدراسـة إلى كشـف معانـاة الشـعراء العشـاق في العـصر الجاهـلي وفاعليـة خطابهـم الشـعري. توصلـت الدراسـة إلى أن أسـاليب هـؤلاء العشـاق اختلفـت في التعبـير عـن تلـك المعانـاة مـن شـاعر إلى آخـر؛ نتيجـة لظـروف وبواعـث متعـددة في نفـس الشـاعر، متمثلـة في بكائهـم عـلى الأطـلال، وألمهـم وتحسرهـم وغربتهـم وضياعهـم، كـما تظهـر تلـك المعانـاة أيضـاً مـن خـلال إقدامهـم وتحديهـم، ففـي كل ذلـك جسـدوا وعـبروا عـما يتحـرك في نفسـهم مـن عـذاب نتيجـة للتجربـة الشـعورية المؤلمـة المتمثلـة بالكبـت والقهر العشـقي، فضـلاً عـن البواعـث النفسـية التـي تشـكلت في معانتهـم في الحصـول عـلى الأمـل والتفـاؤل مـن الحـب. لـذا جـاء غزلهـم عفويـاً صادقـاً غـير مغـرق في الخيـال، وظهـرت فيـه الألفـاظ والتراكيـب الموفقـة المطابقـة لمقتـضى حالهـم، المشـتد بشـدة الطبيعـة مـن حولهـم. كـما أن خطابـات هـؤلاء الشـعراء المتنوعـة في طرائقهـم تنـم عـن متانـة السـبك، وجـمال الوصـف. ويعـد شـعرهم مـن الجـودة والبراعـة مـا لا يمكـن عـلى أي متلقـي أن يغفـل عنهـا، لقـد نقـش هـؤلاء العشـاق عـلى صفحـات أشـعارهم كل مـا حملتـه أنفسـهم مـن عواطـف وأضافـوا عليهـا مـن ملكاتهـم ومواهبهـم الصـور المبهـرة التـي تعـبر عـن واقعهـم الـذي صنعـوه بأيديـه.

Abstract:

The importance of the purpose of spinning in the pre-Islamic era is that it came only as a result of the passionate and sincere passion of self-esteem and generosity that filled the hearts of poets in that era, as well as the enthusiasm and strong emotion, which required them to solve them and leave them since their first in-

ception. The study aims to reveal the suffering of loving poets in the pre-Islamic era and the effectiveness of their poetic discourse. The study concluded that the methods of these lovers differed in expressing this suffering from one poet to another; As a result of multiple circumstances and motives in the poet's soul, represented in their crying over the ruins, their pain, grief, alienation and loss, and that suffering also appears through their defiance, in all of that they embodied and expressed the torment that moves in themselves as a result of the painful emotional experience of repression and emotional oppression, as well as About the psychological motives formed in their struggle to obtain hope and optimism from love. Therefore, their flirtation came spontaneously, honest, not immersed in imagination, and there appeared in the successful words and structures that correspond to the requirements of their situation, which is strongly strengthened by the nature around them. Also, the speech of these poets, who are diverse in their methods, reflects the robustness of the casting, and the beauty of the description. Their poetry is of such quality that no recipient can overlook it. These lovers engraved on the pages of their poems all the emotions they carried themselves and added to them of their faculties and talents the dazzling images that express their reality that they made with their own hands.

مقدمة:

دراسة شعر عصر بعينه تستدعي معرفة مضمونه وخصائصه والأُسس الفعالة التي تكمن وراء كل عمل أدبي، والشعور الداخلي والتجارب التي أثرت في الصياغة الفنية للعمل الأدبي، وذلك لكون الأدب بعامة والشعر بخاصة ترجمانا عن التجارب الشعورية، وبما أننا ندرس شعراً متعلقاً بعاطفة الحب بعامة والعشق بخاصة، فلا بد أن الشعراء حاولوا أن ينقلوا لنا صوراً من الأحاسيس التي ساورتهم والعواطف التي اجتاحتهم ودفعتهم إلى هذا النتاج الفني، وسعوا إلى تصوير تلك الأحاسيس بما يؤثر في نفوس متلقيهم، ويخلب ألبابهم. فهم شعراء عشاق قد وُهبوا قدراً طيباً من رهافة الحس، فكانوا إذا عرض عليهم الجمال، أخذ ذلك بعقولهم واستأثر بأفئدتهم، وهاموا

يتحدثون عنه وينشدون الشعر فيه ولا ينشغلون به عن شيء آخر سواه. ولأهمية المرأة نجد محاولة الرجل ولا سيما الشاعر العاشق في كل زمان ومكان كسب ودها، والإخبار عن هواها بهم، والاجتهاد لكسب مودتها والصبوة إليها والتشوق لمنازلها وديارها. لذلك حاول الشعراء العشاق الحصول على منفذ لبث معاناتهم من خلاله. فاختلفت أساليبهم ووسائلهم في التعبير عن تلك المعاناة. وإننا نطالع في هذه الدراسة طائفة غير قليلة من النصوص الشعرية المفصحة عما يكابده الشعراء من شدة الوجد والاشتهار بمودة النساء والصبوة إليهن والتشوق لمعاهدتهن.

والشعراء الذين ذكروا المرأة كُثر بحيث لا يعدمهم مصرُ ولا تخلو منهم قبيلة. فقد حاول هؤلاء العشاق ومكبلو الحب تصوير آلامهم أصدق تصوير من خلال شعرهم، فلم يكن شعرهم على صورة واحدة بحيث اختلفت الرؤى «لأن الإحساس بالعشق كان دافعاً نفسياً نشيطاً ومحركاً قوياً في إثارة مشاعر الشعراء وأحاسيسهم وشحذ طاقاتهم الشعرية، فكان غزلهم انعكاسا لعشقهم»[1]. فمنهم من بلغ به الأمر إلى اتخاذ الموت كآلية دفاعية في مواجهة المكابدة. وفي هذا الشأن نُقل إلينا أن العشق كان سبباً لموت الكثير منهم أمثال: المرقش الأكبر، وعبد الله بن العجلان، وعروة بن حزام....وغيرهم.

لذا كان من الضروري تحليل معاناتهم وآلامهم وأحزانهم من خلال نتاجهم الشعري لأن هؤلاء الشعراء كانوا يتعاملون مع الحياة تعاملا إنسانياً، ويتأثرون بها تأثيرا عاطفيا مملوءاً بالود والحنين موجهين تلك العواطف إلى من يعشقون.

وبالنظر إلى الشعر الجاهلي يلاحظ أن ظروف المعاناة وطبيعة الحياة كانت المسؤول الأول عن ردود الفعل عند هذا الشاعر أو ذاك؛ لأن المعاناة للناس عامة والشاعر خاصة تستقي مادتها من واقع الحياة، لكن هذا الواقع يستحيل في الشعر إلى واقع آخر مغاير للواقع الحقيقي، ومن ذلك يظهر اختلف طرائق الشعراء في تعبيرهم عن معاناتهم فمنهم من وجد في البكاء سبيلا لإظهار المعاناة، وآخر وجد في الشكوى منفذا له، وراح بعضهم الآخر إلى أكثر من ذلك، بأن جعل من خلال أمله وتفاؤله تعبير عن معاناته أو من خلال إقدامه رؤية صادقة لما يعاني وفيما يأتي أشكال وصور المعاناة التي اتخذها الشعراء.

معاناة العشاق وصورهم الشعرية:

زخر شعر عشاق العصر الجاهلي بمقدمات تتدفق بالحياة تدفقا، حتى لنكاد نسمع من خلالها نبضات قلوب الشعراء وخفقانها، ونحيبهم ونراهم يذرفون العبرات ويسكبون الدموع بغزارة وحرارة وحسرة، على أيام ودعوها فأصبحت ذكريات دفينة في أعماقهم، لكنها ما تلبث أن تعاود الظهور والخروج من حبستها، فتبدأ بتدفق الذكريات كلما مروا بديار محبوباتهم ووقفوا على أطلالهن. إن البكاء على الأطلال أفرزته لنا طبيعة الحياة التي يعيشها المجتمع الجاهلي بعامة والشاعر بخاصة. فهو إذاً مرتبط بظروف وعوامل وأسباب مهمة جدا هي :

ظعن المحبوبة وألم الفراقِ :

عنـد رحيـل المحبوبـة يحـاول الشـعراء إظهـار تلـك المعانـاة، فـترددت لديهـم الشـكوى مـن الحرمـان وضـن الوصـال وخلـف الميعـاد، ونتيجـة لهـذا الحرمـان يصـف الشـاعر نفسـه بسـقم الجسـم والهـزال والضنـى، فـترى عـروة بـن حـزام قـد بـدأ بالشـكوى عـن معانـاة حقيقيـة دفينـة في نفسـه فهـو القائـل[2]:

فَـوا كَبِـداً أمسـتْ رُفاتـاً كأنَّمـــــا * يُلذِّعُهـا بالموقـدِاتِ طبيــبُ
بنـا من جوَى الأحـزانِ في الصَّـدرِ لوعَةٌ * تـكادُ لهـا نفـسُ الشَّـفيقِ تـذوبُ
ولكِنَّـما أبقـى حُشاشَــةُ مقـــولٍ * عـلى مـا بـه عـودٌ هنـاك صليـبُ

النسـيب والوقـوف عـلى الأطـلال والرحلـة مـا هـي «إلا تعبـير مـن خـلال التجربـة الفرديـة عـن القضايـا الوجدانيـة والروحيـة والحيويـة للجماعـة)[3]. فالشـاعر قـد يجـد في الطلـل منفـذا للتعبـير عـن معانـاة الوقـوع تحـت سـطوة الظـروف البيئيـة الشـحيحة، وقانـون الزمـن الصـارم وقدرتـه الخارقـة عـلى تغيـير النـاس والأشـياء. وكان كل شـاعر يحمـل في رحلتـه ذكريـات الأيـام الحلـوة التـي قضاهـا مـع حبيبتـه فيعـبر عنهـا مـن خـلال وقفتـه عـلى الطلـل. لذلـك عـد بعضهـم أن الوقـوف عـلى الأطـلال «عاطفـة تفـرغ الأحـزان لأنهـا جعلـت مـن البـكاء مصـدرا مـن مصـادر الراحـة النفسـية التـي تلـوذ بهـا نفـس الشـاعر في حـالات كثـيرة مـن السـأم والوحـدة والعزلـة واضطـراب المواقـف»[4]. لا تُعـد مقدمـة الطلـل ضربـاً مـن ضروب الذكريـات والحنـين إلى المـاضي والنـزوع بمـا يتضمنـه مـن أيـام السـعادة والشـقاء فقـط؛ بـل هـي عـلاج نفسـي يلجـأ إليـه العاشـق ليقلـل مـن معانـاة الفـراق.

كـما أن ظاهـرة وقـوف الشـعراء عـلى أطـلال الديارشـغلت العديـد مـن الدارسـين القدمـاء والمحدثـين وأشـاروا إليهـا مـن زوايـا متباينـة، ومنهـم مـن يـرى أن سـبب الوقـوف عـلى الديـار هـو البحـث عـن الحـب، كـما ذكـر ابـن قتيبـة: «إن مقصـد القصيـدة الابتـداء فيهـا بذكـر الديـار، والدمـن، والآثـار، فبـكى، وشـكا، وخاطـب الربـع، واسـتوقف الرفيـق؛ ليجعـل ذلـك سـبباً لذكـر أهلهـا الظاعنـين عنهـا... فشـكا شـدة الوجـد وألم الفـراق وفـرط الصبابـة والشـوق، ليميـل نحـوه القلـوب»[5]. أمـا قدامـة بـن جعفـر يـرى: «أن يكـون النسـيب الـذي يتـم بـه الغـرض هـو مـا كـثرت فيـه الأدلـة عـلى التهالـك في الصبابـة وتظاهـرت فيـه الشـواهد عـلى إفـراط الوجـد واللوعـة... وقـد يدخـل في النسـيب الشـوق والتذكـر لمعاهـد الأحبـة بالريـاح الهابـة، و الـبروق اللامعـة، والحمائـم الهاتفـة، والخيـالات الطائفـة، وآثـار الديـار العافيـة»[6]. ويخالفهـم الآمـدي برأيـه: «إنمـا وقفـوا عـلى الديـار وعرجـوا عليهـا عنـد الاجتيـاز، والاقـتراب منهـا لأنهـم تذكـروا عنـد مشـارفها أوطارهـم فيهـا فنازعتهـم نفوسـهم إلى الوقـوف عليهـا، والتلـوم بهـا»[7]. ويؤكـد ابـن رشـيق رأي مـن سـبقوه بقولـه: «للشـعراء مذاهـب في افتتـاح القصائـد بالنسـيب لمـا فيـه مـن عطـف القلـوب واسـتدعاء القبـول بحسـب مـا في الطبـاع مـن حـب الغـزل والميـل إلى اللهـو والنسـاء)[8].ويظهـر مـن ذلـك أن الوقـوف عـلى الأطـلال في نظـر القدمـاء لا يكـون إلا للمـرأة المعشـوقة التـي رحلـت عنهـم، فتثـير أحاسـيس الشـاعر، وتؤجـج ذكـرى الشـوق واللهـو، والشـاعر لم يقـف عـلى الديـار مـن أجـل الديـار بـل مـن أجـل المـرأة المعشـوقة فهـي التـي حركـت لواعـج الشـاعر،

ومـن أجلهـا بـكى شـدة الشـوق وحرقـة الألم. وليـس للطبيعـة وحدهـا كيـان في نفسـه إلا بمقـدار، مـا تثيره مـن خلجـات، فهـي التـذكار الباقـي للحـب. لـذا وصفـوا الأطـلال وصـف نفسـي وجـداني فهـي تمثـل لهـم صفحـة ألم حيـث إن الأثـر النفسـي في الأطـلال أعمـق أثـراً؛ لأنـه يعكـس الـصراع الأبـدي في نفـس الإنسـان- والشـاعر بخاصـة - بـين حـب الحيـاة وغريـزة المـوت، مثلـما يـرى في تلـك الديـار التـي كانـت تزخـر بالحيـاة. كـما أن النسـيب في القصيـدة يجمـع بـين عنصريـن أحدهـما يذكـر بالفنـاء وهـو الأطـلال والآخـر يذكـر بالحيـاة وهـو الحـب. ومـن ذلـك مـا صرح بـه المرقـش الأكـبر القائـل[9]:

أمـن آل أسـماءَ الطلّـولَ الـدَوَارسَ * يُخطـطُ فيهـا الطِـيرُ قَفـرٌ بسـابسِ
ذكـرتُ بهـا أسـماء لـو أن وِليهـا * قَريـبٌ ولكـن حَبَسـتني الحُوَابـسِ

وأنشد قيس بن الحدادي[10]:

سـقى اللـهُ أطـلالاً بِنَعـم تَـرادفت * بهُـنَ النُـوَى حتـى حَللـنَ المَطَايـا
إن كانـت الأيـامُ يـا أمُ مالـكٍ * تَسـلِيكمُ عَنَـي وتُـرضِي الأعـاديا
فـلا يأمَنـنَ بعـدي امـرئ فجـع لـذةٍ * مـن العيشِ أو فجعُ الخُطُـوبِ العُوافيا

ابـن الحـدادي يصـور الطلـل بأنـه رمـز للفنـاء والمـوت، حيـث جعـل وصـف الخرائـب هـو صـورة الطلـل الحقيقيـة، التـي وحدهـا الكفيلـة باسـتثارة خيـال الشـاعر.ومهما اختلفـت الآراء في تفسـير ظاهـرة الطلـل فأننـا نلتمـس مـن خلالهـا ملامـح مشـتركة بـين المظهـر الحزيـن في تجربـة الحـب واللحظـات الجميلة التـي يعيشـها الشـاعر، فالحـب عاطفـة جميلـة، يحلـم بهـا كل فـرد ولأن الحـب دفعـة نـور في ظـلام اليـأس، وسـلاح لا يخيـب في مواجهـة الشـدائد والأزمـات، فيلجـأ ، إليـه الشـاعر الجاهـلي لأنـه يعيـش حيـاة شـاقة قاسـية كل مـا فيهـا ينـذر بالمـوت والحـب يمثـل الحيـاة البهيجـة فـإذا انتهـى إلى اجتـماع الشـمل فهـو الهنـاء والرغـد وإذا انتهـى إلى الفـراق وبـكاء أطلالـه فهـو الألم والحـزن قـال المرقـش الأصغـر[11]:

لأبنـةِ عَجـلانَ بالجـوِّ رُسُـوم * لم يَتَعفـيَّنَ والعهـدُ قَدِيـــمْ
لأبنـة عَجـــــلانَ إذ نحـنُ معـاً * وأيُّ حـالٍ مـن الدَّهـرِ تـــدومْ
أمـن ديـارٍ تعفَّـى رَسمُهـــا * عينُـكَ مـن رَسـمِها بسجُـــومْ
أضحـتْ قفـاراً وقـد كان بهـا * مـن سـالفِ الدَّهـر أربـابُ الهُجُـومْ

لـذا أصبحـت مقدمـات الطلـل لوحـة فنيـة بـكل صورهـا وألوانهـا تـؤدي وظيفـة خلـق الجـو الشـعري، الـذي يمنـح الشـاعر القـدرة عـلى القـول، لأنـه يصبـح في حالـة معانـاة شـعرية حـادة، تمـده بالمشـاعر التـي تمكنـه مـن التنفيـس عـن كل مـا يحتبـس في نفسـه مـن الإحسـاس. ومـن يمعـن النظـر في مقدمـات الطلـل يراهـا تـدور حـول معـانٍ متقاربـة هـي الشـوق والحنـين إلى المـاضي والتصـاق الشـاعر بـالأرض ويظهـر ذلـك التقـارب والتشـابه مـن خـلال رنـة الحـزن والشـكوى الموجـودة في شـعره وتطفـو تلـك الرنـة الحزينـة عندمـا يلقـى الشـاعر نظـرة عـلى دار الحبيـب فـلا يجـد إلا بقايـا. ومثـال ذلـك مـا أنشـده عنـترة[12]:

ألا قاتـلَ اللـهُ الطلولالبَواليـا * وقاتـلَ ذِكـراكَ السِّـنينَ الخواليـا
وقولـكَ للـشَّيء الـذي لا تنالـهُ * إذا مـا هـو أحلـولَي ألا ليـتَ ذا ليـا

وجاءت المقدمات في صور مختلفة فأنشده عنترة رحلة الظعن [13]:

ظَعَـنَ الذيـن فِراقَهـم أتوقَّـعُ * وجـرى ببينهـمُ الغُـرابُ الأبقـعُ
حـرقُ الجنـاحِ كأنّ لحيـي رأسـهِ * جَلَـمانُ بالأخبـارِ هـشٌّ مولـعُ
أنَّ الذيـن نَعيـتَ لي بِفراقهـمْ * قـد أسـهروا ليـلي التَّـمام فأوجـع

أما مقدمة وصف الطيف قال المرقش الأكبر[14]:

سـرى ليـلاً خيـالٌ مـن سليمـى * فأرقنـي وأصحـابي هجـودُ
فبـتُ أديـر أمـرى كلّ حـالِ * وارقـبُ أهلهـا وهـم بعيـدُ

وغير هؤلاء الشعراء كثير من الذين تنوعوا في مقدماتهم، ولكنها مع ذلك كانت تحمل في طياتها العديد من الآلام والأحزان التي تحز له النفس الإنسانية. وعندما تمضي إلى تأمل صورة اللوحة الافتتاحية – الطلل تلاحظ أن رقة العاشق وشوقه دفعه إلى أن يبكي بكاءً شديداً، كما يخيل إليك أنه غرق في بحر دموعه. من شدة ما سال من دموع على مِحمله[15]:

ففاضت دموعُ العينِ منّى صَبابةً * على النّحرِ حتَّى بلَّ دَمعي مَحمَلي

ويعد امرؤ القيس من أوائل الشعراء الذين ابتدأ صنعة الوقوف على الأطلال، لأنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل في مصراع واحد. بقول[16]:

قِفَا نبكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ * بِسقطِ اللِّوَى بين الدَّخُولِ وحوملِ

يحاول امرؤ القيس بهذا البكاء أن يخفف من أحزانه وأشجانه إزاء هذه الديار ويطلب من صاحبيه أن يساعداه ويعيناه على البكاء عند تذكرة حبيبته (فاطمة). وتراه يحاول بهذه الوقفة أن يجعل كل منا يبكي صفاء عيشه وتمتعه بحبيبته في تلك المنازل الشاغرة. ويحاول الأصحاب أن يخففوا عن هذا الشاعر آلمه وأحزانه بأن يصبر ويتجلد، ويكف عن البكاء الذي كاد أن يهلكه فقال[17]:

وُقوفاً بها صَحبي علىَّ مَطيَّهم * يقولون لا تهلكْ أسى وتجمَّلِ

لذا نجد أن الشاعر يسعى إلى إراقة الدموع لأنها تخفيف ما يكابده من شوق وحنين، لعله وجد في البكاء سلوى لفراق الحبيبة، ثم يشعر أن لا طائل من الوقوف على رسم دارس غير معول فينشد[18]:

وإن شفائي عبرة مهرقة* وهل عند رسم دارس من معول

كما إن رقة الشوق قد دفعته إلى أن يبكي بكاءً شديداً يخيل إليك أنه غرق في بحر دمعه. من شدة ما سال من دموع على محمله():

ففاضت دموعُ العينِ منّى صَبابةً * على النّحرِ حتَّى بلَّ دَمعي مَحمَلي

ويعد ذلك أفضل ابتداء صنعه شاعر؛ لأنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل في مصراع واحد. وهذا ما أكد بعض الشعراء في كون امرؤ القيس أول من وقف على الأطلال،لكن عنترة يرى أن الشعراء وقفوا قبله على الأطلال، واستنفذوا المعاني الشعرية، ووصفوا الدمنّ حتى لم يتركوا لغيرهم

مقالا. فهو القائل[19]:

هل غادَر الشُّعراءُ من مُتَردَّمِ * أم هل عرفتَ الدّارَ بعد توهُّمِ

فما أكثر ما بكى من الشعراء ولا سيما العشاق منهم ما أثار أحبابهم فبللوا رسائل الحب، كأنما كان البكاء ضريبة باهظة على كل عاشق، ومن طبيعة الحب البكاء فليس هناك واحد عرف قلبه الحبّ ثم لم يعرف الدمع. ولا يكاد يعرف الشعر أمر أقدم من بكاء الأحباب. وأن البكاء يتولد من القلق لأن البكاء على الأطلال بكاء إنسان قلق يحس بعمق أن الفناء يتربص به. لذا فإن البكاء الصادق على الأطلال والوقوف عندها هو ثورة عاطفية يتذكر فيها الشاعر أياماً انقضت، أو يسترجع ساعات من طيب العيش ولذته.كما تجد شعره قد تضمن من العاطفة الإنسانية ونجوى الوجدان التي تهز كل إنسان، وقيل أن البكاء هو: «دفقة القلب، يجلوه الشاعر بها ويريحه وهو لو لم يرتح الشاعر بعد البكاء لظل يبكي، ولكنه يقف ويستوقف لحظات وينضح قلبه بكلمات شعرية»[20]. كما فعل امرؤ القيس[21]:

فسحَّت دُمُوعي في الرِّداءِ كأنَّها * كُلَىً من شَعِيبٍ ذات سحٍّ وتَهتانِ

وغدا الشاعر في قصائد أخرى يبين لحبيبته حاله بعد رحيلها، ويعبر لها عن شدة شوقه إليها لأن من شان الحب أن يمتلك القلوب. فقال[22]:

أغالبكَ القلبُ اللجوجُ صبابةً * وشوقاً إلى أسماءِ أم أنتَ غالبهُ
يهيمُ ولا يعيا بأسماءِ قلبهُ * كذلك الهوى إمرارهُ وعواقبهُ
أيلحى امرئ في حُبِّ أسماء قد نأىَ * بغمزٍ من الواشين وازوّر جانبهُ
وأسماءُ همُّ النفسِ إن كنتَ عالماً * وبادي أحاديث الفؤادِ وغائبهُ
إذا ذكرتها النفسُ ظلتُ كأنني * يزعزعني قفقاف وردٍ وصالبهُ

ومن ذلك يظهر أن رحيل المحبوبة من المواقف الصعبة التي تفتضح فيها عزيمة كل ماض في العشق، وتذهب قوة كل ذي بصيرة وتسكب كل عين جمودا ويظهر مكنون الجوى... يتمنى فيها كل عاشق أن يموت في ساعة الوداع، وقيل عنها: «وإنها لساعة ترق القلوب القاسية وتلين الأفئدة الغلاظ وأن حركة الرأس وإدمان النظر والزفرة بعد الوداع لهاتك حجاب القلب وموصلة إليه الجزع»[23].فالبكاء والنحيب لم يكن «عاطفة آنية ضائعة أو وقفة تأملية عابرة، تحفزها دواعي الوقوف ... وإنما هي ظل حزين يلف نفس الشاعر وهو يقترب من هذه البقايا »[24]. وهذا ما نحسه في أبيات المرقش الأكبر الذي عبر عن حبه الضائع قائلا[25]:

الدّارُ قفرٌ والرُّسومُ كما * رَقَّشَ في ظَهرِ الأديمِ قَلَمْ
دِيارُ أسماءَ التي تبلتْ * قَلبي ، فعيني ماؤُها يَسجُمْ

وترى أن الشاعر قد يستعيد ذكرى الوداع وما جرى فيه من الدمع وهو يصف هذا اليوم الشديد عليه لصعوبته[26]:

فَولَّتْ وقد بثَّتْ تباريحَ ما ترى * ووجدي بها إذ تحدُرُ الدَّمعَ أبرحُ

ويشاركها العاشق البكاء باندماج وجداني كما فعل عنترة فنجده يستشعر الأسى والحزن حين رفض عمه تزويج ابنته له، ومضى يحبها حبا عنيفاً... حب يائس محروم... يكظم حزنه فهو يصور لوعته بعاطفة روحانية سامية،، وبشكوى يغلبها الخوف على من يحب يقول[27]:

ريحَ الحِجازِ بحّقِ من أنشأكِ * رُدّي السّلامَ وحيّ من حيّاكِ
ياريحُ لولا أنّ فيكِ بقيَّةً * من طيبِ عبلةَ مِتُّ قبلَ لقاكِ
كيف السلُّوُّ وما سمعتُ حَمائماً * يندُبنَ ألا كنتُ أولَ باكِ
يا عبلَ ما أخشى الحِمامَ وإنَّما * أخشى على عينيكِ وقتَ بكاكِ

لذا غدت تلك الافتتاحيات رمزا لليأس، ونموذجاً أعلى للخراب والموت هي كفيلة بإثارة المعاناة النفسية، أو الشعور بالشجن والحزن، حيث إن الذكريات تراود الشاعر حالما يعود إلى الأماكن التي افترق بها عن الأحبة فتهيج أشجانه وتتزايد أحزانه وذلك لأن «السكان للمنازل كالأرواح للأجساد فإذا ارتحلوا آن حمامها، وحان دثورها»[28]. فالشاعر يحاول الإفصاح عن الأسى والحزن من خلال بكاء الرسوم الهوامد. فالبكاء هو رمز عن تجربة الألم ولا تخرج بواعث هذا البكاء عن حبيبة راحلة، وأهل ظاعنين، وحنين إلى ماض، واحتجاج على الجدب والقحط. ويعد البكاء على الأطلال بمثابة البكاء على الحياة نفسها، وكان رائد هذا البكاء هو ابن حذام. وهي حقيقة سجلها لنا امرؤ القيس في قوله[29]:

عُوجَاً على الطَّللِ المُحيلِ لعلنَّا * نَبكِي الدِّيار كما بكى أبِنُ خِذامِ[30]

إذن بكى ابن خذام الديار حقيقة ومن هنا نفهم عمق التجربة الشعورية التي يعانيها الشاعر الجاهلي لدى وقوفه على الطلل البالي.

معاناته في الإقدام والتحدي:

بالنظر في الشعراء العشاق الجاهليين تجد فيهم الكثير من الصفات والخصال التي يحبذها المجتمع، ويتمنى وجودها في الرجل وهي أن يكون شجاعاً مقداماً متحدياً لا يخاف المصاعب متجاوزاً لكل ما يعيق طريقه، وهذه الشجاعة والإقدام لا تقتصر على الرجل الفارس بل على الرجل العاشق أيضاً؛ لأن أولئك العشاق رجال آمنوا بالحب، فعظموه ومجدوه واستهانوا من أجل المصاعب والأهوال. «لقد طاب لهم أن يفتضحوا بالحب، وأن يجعلوه نصيبهم من المجد»[31]. فأنشد عنترة[32]:

تغالتْ بي الأشواقُ حتَّى كأنَّما * بِزندينِ في جوفي من الوجدِ قادحُ
وقد كنتَ تخفي حبُّ سمراءَ حقبةً * فبح لأن منها الذي أنتَ بائحُ

وكان للبيئة العربية أثرها في هذه العاطفة وساعدت على تكوين أخلاق وتقاليد سرت في روح العاشق وتمكنت من نفسه.. وهي صفات الفروسية التي آثارها في عاطفته وحبه فهو يحب أن يظهر أمام حبيبته بمظهر القوي الذي يحميها ويخاطر في سبيلها. قال امرؤ القيس[33]:

جَزِعتُ ولم أجزعْ من البينِ مَجزَعا * وعزَّيتُ قلباً بالكواعبِ مُولعا
وأصبحتُ ودّعتُ الصِّبا غير أنَّني * أراقبُ خلاَّتٍ من العيشِ أربعا
إذا أخذتها هزَّةُ الرَّوعِ أمسكتْ * بمنكبِ مقدامٍ على الهولِ أروعا

فيبدو أن الشاعر العاشق غير مبال بالموت إذا حل به ما دام قلبه مملوء بحب حبيبته. قد جعل من الحب ملحمة يتغنى فيها بحسن بلائه وعظيم جهاده، ويفند فيها مظاهر بطولته تجاه ما يعاني من صنوف العذاب، وصار بذلك بطلا لملحمة من نوع جديد. قال عروة بن حذام [34]:

تحمّلتُ من عفراءَ ما ليس لي به * ولا للجبالِ الرّاسياتِ يدانِ

لعل هذا الشعور بالقوة والسمو راجع إلى أثر الحب في تهذيب العاشق واكتمال خلقه وشخصيته، فالحب هو الينبوع والمصدر لكل الأشياء الخيرة، ولولاه ما عرف الإنسان معنى اللطف والمجاملة والتظرف. يقول أندرياس: «إن الحب يحول الرجل الفظ الغليظ إلى ظريف لين العريكة، ويزود الرجل الوضيع المنشأ بالخلق النبيل... وأن المحب لقادر على البذل مستعد لإسداء المعروف لأي كان من الناس»[35]. وينبغي لنا أن نتأمل النموذج الشعري الذي يعمد الشاعر إلى صياغته فترى أن الأغراض التي عرض لها الشعراء الجاهليون، لم تكن في كثير من الأحيان مقصوداً إليها قصدا، ولا متعمداً تعمداً، بل كانت روح الحب وعواطف الهوى هي التي تكمن وراءها، وكانت هذه الأغراض تتصل بالغزل بهذا السبب أو ذاك، فمثلا التغني بالشجاعة والإقدام الذي أنشده عنترة في معلقته، ولم يكن بعيداً عن روح الغزل بل كان منبعه ومصدره وكان مهره لحبيبته عبلة. فهو القائل[36]:

هلاَّ سَألتِ الخيلَ يابنةَ مالكِ * أن كنتِ جاهلةً بما لم تعلمي
إذ لا أزالُ على رحالةِ سابحٍ * نهدِ تعاورهُ الكُماةُ مُكلَّمِ
يُخبركِ من شهدَ الوقائعَ أنَّني * أغشى الوغى وأعفُّ عند المغنمِ

فخر الشعراء العشاق بأنفسهم أمام محبوباتهم فتغنوا بسجاياهم الكريمة، وصفاتهم المحمودة في حدود المفهوم الاجتماعي والخلقي، الذي تعارف عليه المجتمع الجاهلي. إن عنترة لم ينس فخره بفروسيته المادية التي تتمثل في شجاعته الحربية، وفروسيته المعنوية الخلقية التي تتمثل في عفته وخصاله التي يفخر بها أمام ابنة عمه عبلة. ولقد ظل عنترة يتغنى بحب عبلة طوال حياته تغني المحب المحروم. ويتذكر حب عبلة في أحرج أوقاته وأعظم مفاخره، فقد ذكرها والسيوف تتصافح، وبلغت به شجاعته وحبه معاً،بأن ود أن يقبل السيوف لأنها تبرق وتلمع كما تلمع ثناياها. فهو القائل[37]:

ولقد ذكرتكِ والرِّماحُ نواهلٌ * مني وبيضُ الهندِ تقطرُ من دمي
فوددتُ تقبيل السُّيوفِ لأنها * لمعتَ كبارقِ ثغركِ المتبسّمِ

عنترة دائم الذكر لها في وغى الحرب، وحتى حين تعبث به سيوف أعدائه ورماحهم أنه من أجلها يحارب ويخاطر ويغامر. ويأتي شعره ممزوجاً بالعاطفة المتأججة المتألمة. ولم تكن فروسية عنترة إلا وليدة صدقه في الحب فهو بطل الحب العفيف المعذب، الذي يغامر في سبيل

ابنـة عمـه، ويغـالي في طلبهـا [38].

يا عبلُ لولا أن أراكِ بناظري * ما كنتُ ألقى كلَّ صعبٍ مُنكـرِ

وأما حبيبته تثير في نفس المحب اهتمامه الكبير بشأنها ولهذا نجدها موضع عنايته يتوجه إليها بجليل أعماله، فهو يبين قوته وغيرته على حبه فهو القائل[39]:

إذا لعـبَ الغـرامُ بـكلِّ حـرٍّ * حمـــــدتُ تجــــــــلُّدِي وشَكرتُ
وفضلــتُ البعـادَ عـلى التَـداني * وأخفيـتُ الهـوى وكتمـتُ سرِّي

وأظهر الفرسان الشعراء بطولات نادرة مصبوغة بالغرام والحب لاسترجاع الفتيات الأسيرات في مناسبات تفوق الحصر. ويعد الحب في نظر العرب نعمة تبعث الشعور الصادق، والعاطفة النبيلة، وتوقظ صفات الرجولة والبسالة. فكان لكل فارس حبيبة تومئ إليه بأمثلة الشجاعة. فروسية العرب فروسية حقة تمتاز بالإخلاص والجمال. وخير دليل على تلك البطولات التي خاضها الشعراء العشاق الفرسان من أجل فك أسر الحبيبة من يد الأعداء هو ما فعله وافصح عنه أبو نصر البراق[40]:

لأفرجــنَّ اليــومَ كُلَّ الغمَـــمِ * مِـن سـبيهم في اللَّيــلِ بيـضَ الحـرمِ
صــبراً إلى مــا ينظـرونَ مقدمــي * أنيّ أنــا الــبرَّاقُ فـوقَ الأدهـــمِ
لأرجعــنَّ اليــومَ ذاتَ المــبسمِ * بنــتَ لُكيـزَ الوائِـليِّ الأرقـــمِ

وقوله[41]:

أمــن دونِ ليـلى ، عوَّقتنـا العوائــقُ * جنــودٌ وقفــرٌ ترتعــي النَّقانِـــقُ
وعجــمٌ ، وأعــرابٌ ، وأرضٌ سـحيقةٌ * وحِصــنٌ ، ودورٌ دُونهــا ، ومقالِـــقُ
وغرَّبهــا عنِّــي لُكيــزٌ بجهلـــهِ * ومِمَّــا يعقــهُ ، عنــد ذلـكَ ، عائِـــقُ
وقلَّــدني مــا لا أطيــقُ ، إذا ونــتْ * بنــو مُـضرَ الحُمـرُ ، الكرامُ ، الشَّـقائِقُ
وأنِّي لأرجوهــم ،ولســتُ بائــسٍ * وأنِّي بهــم ياقــومُ، لا شـكَّ ، واثِـــقُ
فمــنْ مُبلــغٌ بُــردَ الأيــادي وقومـــهُ * بــأنِّي بشـأري. لا محالــةَ لاحِـــقُ

ويصف مضاض الجرهمي بطولته وقوته من خلال ما صرح به أمام حبيبته قائلا[42]:

صريــعُ هــوى نــائي المحلــةُ نــازحُ * ســبحاً بعـد أشراقِ الصبـاحِ نهــارهُ
عــلى أنــهُ قــرنٌ إذا هــبَ طـــارقٌ * فَليـث عريــنَ لا يشــقُ غُبـــارهُ

كـما أن ثمـة شـعراء عانـوا مـن ظروفهـم الشـخصية حـد اليـأس، لكنهـم ظلـوا يواجهـون لاحتـلال مواقعهـم الاجتماعيـة التـي تليـق بهـم. ولعـل امـرأ القيـس الـذي عـانى مـن اضطهـاد الأب في شـبابه، وحُمـل مسـؤولية إعـادة بنـاء مملكـة كنـدا المنهـارة بعـد مقتـل أبيـه يمثـل واحـدا مـن أوضـح أمثلـة الاسـتجابة البطوليـة.

إن الحديـث عـن تلـك المغامـرات ربمـا لا تحمـل محمـلا واقعيـا، وإنمـا هـي مـن خيـال الشـاعر والتـي سـاقها للدفـاع عـن نفسـه، لأنـه بحاجـة إلى تأكيـد هـذه الصفـات كي يعلـل نفسـه لتتجشـم الأهـوال والبطولـة. وإذا التمسـنا المغامـرة الليليـة في شـعر امـرئ القيـس، فـأول مـا يطالعنـا تلـك المغامـرة التـي عدهـا ضربـة مـن الشـجاعة والتحـدي متجـاوزا الأجـراس والأهـوال في سـبيل لقـاء مـن يحـب وذلـك

مـا افصـح عنـه في قولـه [43]:

وبيضـةِ خـدرٍ لا يـرامُ خباؤهـــا * تمتَّعـتُ مـن لهـوٌ بهـا غـير مُعجـلِ
تجـاوزتُ أحراسـاً وأهـوالَ معـشرٍ * عـليَّ حـراصٍ لـو يـشّرونَ مَقتـلي

لقـد وصـف الشـاعر لنـا مغامرتـه الليليـة وكيفيـة تجـاوز مـا يحيـط بحبيبتـه مـن الحـراس والأهـوال بطابـع مـن التسـتر والتخفـي وهـو يعـرض شـدة شـوقه للقـاء الحبيبـة وكيـف استسـهل الصعـاب والأهـوال وصـولا إلى مـراده. ونجـد أن امـرأ القيـس قـد فخـر بمـا يلائـم حياتـه اللاهيـة. ولوجـود المـرأة إلى جانـب الرجـل كان لا بـد لـه أن يتوجـه إليهـا بكريـم خصالـه، وجليـل فعالـه وخالـص حبـه وولائـه وعطفـه واحترامـه لهـا، فضـلاً عـن إقدامـه وتحديـه للمخاطـر، وذلـك حسـب منزلتهـا في نفسـه وصلتهـا. واستسـهاله للمصاعـب في سـبيلها واللحـاق بهـا أينـما ذهبـت حتـى وأن حلـت بـارض بعيـدة مـن ذلـك قـول المرقـش الأصغـر [44]:

ألا يـا أسـلمِي ثُـمَّ أعلمـي أنّ حاجتـي * إليـكِ فـرُدِّي مـن نوالـكِ فاطِـم
أفاطـمَ لـو أنّ النسـاءَ ببلـدةٍ * وأنـتِ بأخـرى لاتَّبعتُـكِ هائِمـا

كما أن بعض الشعراء تجد الهمة والقوة لديه بحيث يستطيع أن يلمس النجوم بيده وهذه القوة تأتي من عشقه الكبير وهذا ما نتأمله في قول عبد الله بن العجلان [45]:

لقـد كنـتُ ذا بـأسٍ شـديدٍ وهمـةٍ * إذا شـئتُ لمسـاً للثُريـا لمستُهـا
أتتنـي سـهامٌ مـن لحـاظِ فأرشـقت * بقلبـي ولـو أسـتطيعُ ردّ أرددتهـا

وقد يصل العشق بالشاعر أن يبلغ به التحدي حدا يرتكب جريمة قتل في سبيل من يعشق كما فعل خزيمة بن نهد حين قتل والد حبيبته الذي رفض تزويجه إياها فقال معترفا بذلك [46]:

فتـــــاةٌ كـــــأنَ رضـابَ العبيـــرِ * بفيهـا يُعـلُّ بـه الزنجـبيلُ
قتلـــــتُ أباهـا عـلى حُبِهـــا * فتبخـلُ أن يخلـفُ أو تنيـلُ

ومن ملامح العشق الصادقة الذي غرسته المرأة في قلب العربي العاشق التضحية الصادقة والاستبسال لأجل الحب، فأصبح العاشق لا يخشى أي شيء فقد استهان الموت وتمنى وقوعه. وذلك ما نطالعه في تجربة قيس بن الحدادي العاطفية [47]:

وأن الـذي أمّلـتُ مـن أمُّ مالـكٍ * شـابَ قُـذالي وأسـتهامَ فُـؤادي
فليـتَ المنايـا صبَّحتنـي غدَيَّـةٍ * بذبـحٍ ولم أسـمعْ لبـينٍ مُناديـا

فهـذا الشـاعر الصعلـوك العاشـق يريـد أن يثبـت القـوة لنفسـه أن المـوت في أثنـاء الـصراع والقتـال نهايـة جديـرة بالصعلـوك الثائـر، ومعنـى للإقـدام والمخاطـرة بالنفـس والاسـتهانة بالحيـاة. وهـذا مـا تـراه في موقـف الشـاعر بـشر بـن عوانـة حينـما اسـتهان بالمـوت في سـبيل الحصـول عـلى مهـر ابنـة عمـه التـي مـن أجلهـا لاقـى أشـد الحيوانـات ضراوة وكأنمـا أراد مـن خـلال هـذه المواجهـة أن يؤكـد صفـة الشـجاعة لنفسـه في خطابـه الشـعري [48]:

أفاطمُ لـو شـهدتِ ببطـنِ خبـتٍ * وقـد لاقـى الهِزَبـرُ أخـاكِ بِـشراً
إذاً لرأيـتِ ليثـاً زارَ ليثـــاً * هِزبـراً أغلبـاً لاقـى هِزبـــرَا

ويتضح من ذلك أن الخطاب الشعري هو الوسيلة الأفضل في عصر الجاهلي للتعبير وهي صفات الفروسية والتحدي التي أثارتها عاطفة العشق والهيام التضحية الصادقة، والاستبسال لأجل الحب، فصار العاشق لا يخشى أي شيء فلا غرو اذا ما استهانوا بالموت، فقد بين الشعراء الفرسان بطولات نادرة مصبوغة بالغرام والحب الصادق النبيل العفوي الذي لا تلونه ضروب الحياة.

معاناتهم في الحصول على الأمل والتفاؤل:

إن شعراء العصر الجاهلي كانوا يهوون الجمال، فراحوا يبحثون من م عن ذلك الجمال، ولم يجدوا أجمل من المرأة رمزا للتعبير عما يشعرون به، فالشاعر العاشق عندما يذكر حبيبته:»يعتريه لطيب ذكراها من الفرح والنشوة ما يعتري العصفور حين تبله قطرات الغيث بعد طول ظمأ في الصحراء»[49]. ويظهر هذا الإحساس بعد اليأس العميق الذي رمز إليه بالطلل، حيث تنفتح أمام نواظره بوارق الأمل، فاتخذ المرأة رمزا له، ويعبر عنه بامرأة جميلة قد جمعت كل صفات الحسن. قال امرؤ القيس[50]:

تضـئُ الظَّـلامَ بالعشـاءِ كأنَّهـــا * منـارةُ مُمسى راهـبٍ متبتِّـــلِ
وتضحي فَتيتُ المسكِ فوقَ فِراشها * نئـوم الضُّحـا لم تنتطـق عـن تفضُّـلِ

هـذا العاشـق عـلى الرغـم مـما مـا يقاسـيه في سـبيل الحـب حزنـاً وسـقماً ليـس بيائس،لأنـه يحتمـل الم البعـد آمـلاً في اللقـاء، ويتجلـد حـين الهجـر مترجـى الوصـل، وبـين هـذا وذاك يتوسـل بشـتى الوسـائل التـي تدنيـه مـن أملـه، وتيسـر لـه الطريـق إلى مـا ينشـد. فـكان العشـاق يسـتعينون بالرسـل ليقربـوا بينهـم وبـين مـن يحبـون، قـال عنـترة[51]:

فبعثـتُ جـارتي فقلـتُ لهـا أذهبـــي * فتجسَّـسي أخبارهـا لي وأعلمـي

أو يبعثوا السلام لمن يحبون مع أصحابهم كما فعل عبد الله بن العجلان[52]:

ألا أبلغـا هنـداً سـلامي وأن نـأتْ * فقلبـي بهـا قـد شـطتُ الـدَّارُ مُدنـفُ

الشاعر العاشق لا يعبر عن عاطفة واحدة أو نفس واحدة بل يعبر عن عواطف متغايرة، ونفوس متباينة. والأمل يرمز إليه برضى المرأة عنه وبجمالها، قال عنترة[53]:

ولـئن سـألتَ بِـذاكَ عبلـةَ خـبِّرتْ * أن لا أريـدُ مـن النِّسـاءِ سِـواها
وأجيبهـا إمـا دعّـت لعظيمـــةٍ * وأعينهـا واكـفُ عـمَّا سـاها

يصورالعشـاق انفعالـه بالجـمال لـذا تراهـم قـد اسـتهلوا عـدداً كـبيراً مـن قصائدهـم بالغـزل الـذي تغنـوا فيـه بقصـص حبهـم وحكايـات غرامهـم. وكيـف كانـوا غارقـين في نشـوة اللقـاء يظنـون أن الأيـام لـن تفـرق بينهـم وبـين محبوباتهـم، ولـن يكـدروا. كـما أن بعضهـم راحـوا يسـتجدون الأمـل في داخلهـم مـن خـلال تصويرهـم في بعـض مقدمـات قصائدهـم لأطيـاف محبوباتهم.»وقـد سرت إليهـم بآخر الليـل البهيـم وأخـذت تداعبهـم وتهيـج أشـواقهم السـاكنة وتجـدد آمالهـم وذكرياتهـم الهامـدة. وقـد يلجـأون لذكـر الطيـف، فالطيـف يعـد محاولـة لاسـترداد الفـردوس المفقـود، وبالتـالي فهـو شـكل خفـي مـن أشـكال مقاومـة الانصيـاع، أو لنقـل هـو مظهـراً لا شـعورياً مـن مظاهـر إدانـة الزمـن المسروق... ومحاولـة تعويضـه لخلـق برهـة الفـرج المنهوبـة»[54]. في ذلـك قـال عنـترة[55]:

أن طيـفُ الخيـالِ يـا عبـلَ يشـفي * ويـداوى بـه فـؤادي الكئـبُ
وهـلاكي في الحـبِّ أهـونُ عنـدِي * مـن حيـاتي إذا جَفـاني الحبِيـبُ

وقوله[56]:

أيـا عبـلُ مُنِّـي بطيـفِ الخيـالِ * عـلى المسـتهامِ وطيـبِ الرُّقـادِ
عـسى نظـرةٌ منـكِ تحيـي بهـا * حَشـاشةَ مـيـتِ الجفـا

وأنشد أيضا[57]:

وبـتُّ بطيـفِ منـكِ يـا عبـلُ قانعـاً * ولـو بـاتَ يـسرى في الظَّـلامِ عـلى خّدي
فيـا للـه يـا ريـحَ الحجـازِ تنفـسَّي * عـلى كبـدٍ حـرَّى تـذوبُ مـن الوجـدِ

وهذا المرقش الأصغر وقد وصف لواعج أشواقه إلى طيف محبوبته بعد أن زاره طيفها وظنه شخصها وتلك هي رؤيته[58]:

أمـن بنـتِ عجـلانَ الخيـالُ المُطـرّحُ * ألمَّ ورحـلي سـاقطٌ متزحـزحُ
فلـما انتبهـتُ بالخيـالِ وراعنـي * إذا هـو رحـلي والبـلادُ توضّـحُ

وقـد يعـبر الشـاعر عـن أملـه مـن خـلال تذكـره للحبيبـة بعـد طـول غيـاب وازديـاد الشـوق كـما في قـول عبـد اللـه بـن العجـلان[59]:

قـد طـالَ شـوقي وعـادَ لي * طـربي مـن ذكـرِ كريمـةِ الحسـبِ
غـرّاءَ مثـل الهـلالِ صُورتُهـا * أو مثـلْ تمثـال صـورةَ الذهـبِ

وذلك شأن قيس بن الحدادي القائل [60]:

إنَّ الفـؤاد قـد أمـسى هائمـاً كلفـاً * قـد شـقَّهُ ذُكـرُ سـلمى اليـومُ فانتكسا
تذكّـر الوصـل منهـا بعدمـا شـحطتْ * بهـا الدَّيـارُ فأمـسى القلـبُ مُلتبسـا
فعـدّ عنـكَ همـومُ النفـسِ إذ طرقـتْ * واشـد برحلـكَ مذعـان الـسُّرى سُدسَـا

اتخـذ الشـعراء مـن المـرأة رمـزاً للأمـل ومـن خـلال عينهـا وثغرهـا وجيدهـا، كـما أن هنالـك رمـوز أخـرى فرعيـة كاللـون الأحمـر الـذي يرمـز إلى الأمـل، ولـذا بـدت أسـتار الظعائـن كلهـا حمـراء اللـون أو كريـح الصبـا التـي جعلهـا الشـعراء محملـة بالشـذى أو فـوح الريـاض. حيـث قـال امـرؤ القيـس واصفـا ثيـاب النسـاء الملونـة بالأحمـر والأصفـر وغيرهـا قائـلا[61]:

تبـصَّر خليـليَ هـل تـرى مـن ظعائـنٍ * سـوالكَ نقبـاً بـين حَزميشَـعَبعَبِ
علـون بأنطاكيَّـةٍ فـوق عِقمـةٍ * كجِرمـةِ نخـلٍ أو كجنَّـةِ يثـربِ

وقال أيضاً [62]:

فلـمّا أجَزنـا سـاحةَ الحـيِّ وانتحـى * بنـا يطـنُ حِقـفٍ ذي رُكامٍ عَقَنْقَـلِ
إذا التفتـتْ نحـوي تضَّـوعَ رِيحُهـا * نسـيمَ الصَّبـا جـاءتْ بِرَيَّـا القَرَنْفُـلِ

لقـد وصـف الشـاعر حبيبتـه بطيـب الرائحـة وجـمال المنظـر، وراح البعـض إلى تصويـر الوجـوه

والأصابع بالإضافة إلى طيب الرائحة وهذا ما أكده المرقش الأكبر قائلا[63](3):

بل هل شجتك الظّعُنُ باكرةً * كأنهن النخلُ من ملهمِ
النشرُ مسكٌ والوجوهُ دنا * نيرٌ وأطرافُ البنانِ عنمِ

وقال المرقش الأصغر[64]:

وما قهوةٌ صهباءُ كالمسكِ ريحُها * تُعَلَّى على النَّاجُود طوراً ويُقدحُ
بأطيبَ من فِيها إذا جئتُ طارقاً * من الليلِ بل فُوها ألذُّ وأنصحُ

أماعبد الله بن عجلان فقد تمتع بمن يعشق،بطيبة رائحتها في زمن شبابه فقال[65]:

وحقَّةِ مسكٍ من نساءٍ لبستُها * شبابي وكأسٍ باكرتني شَمُولُها
جديدة سربالِ الشبَّابِ كأنَّها * سقيَّةُ بَردِي نَمَتها غُيُولُهَا

كما أن الشاعر الجاهلي العاشق كان في كثير من الأحايين يعمد إلى استخدام الألوان ليعبر بها عن بعض ما يريد التعبير عنه بصورة إشارات؛ لأن الصورة المادية بشكلها المحسوس لا يمكن نقلها إلى السامع أو القارئ وهي على هيئتها. كما يُحمل هذه الألوان بعض الدلالات النفسية التي تعارف عليها الناس. ويبدو أن الشعراء كثيراً ما كانوا يميلون إلى استعمال عبارة (نقي اللون) و (الناصع) إلى كثير من مواصفاتهم ليعطوا بها الصورة قدرة أكبر على التعبير، ويمنحوا شكل المحبوبة هيئة واضحة، فقال المرقش الأكبر[66]:

أسيلة الخدَّين بكرٍ * مَنَّعة لها فرع وجيدُ
أشرٍ شتيتُ النبتِ عذبٌ * نقيُّ اللونِ برَّاقٌ برودُ

فتراهم يدققون النظر في مواصفات محبوباتهم، فيرونها ماثلة أمام نواظرهم بخدها وبفرعها وبريق ثغرها وبرودها. كما أن الشاعر العاشق عمد إلى استخدام عناصر أخرى ترمز إلى الأمل لا تقتصر على المرأة واللون والرائحة، فحسب بل جعل من العوامل الطبيعية المحيطة به عناصر تبعث الأمل في قلب الشاعر، ومن بين تلك العناصر التي وظفها الشاعر المطر والماء والرياح، ومثل المطر له الأمنية التي تتعلق بالحياة، ولا تبدو هذه الأمنية في أشد حالاتها إلحاحاً إلا أمام الموت طبيعيًا كان أم معنويًا، الشاعر يرى أن السماء ستمطر أما على قبر محبوبته، وأما على قبور الذكريات المتمثلة في الأطلال. ويُلاحظ أن استخدام عنصر الماء يظهر فيه تناقض، فهو يمثل للشاعر العاشق مادة إلى الحياة والموت معا، ويتجلى ذلك في زعم الشاعر أن الأمطار هي سبب تخريب ديار الأحبة، ثم تراه في موضوع آخر يستطرد إلى وصف الحياة التي بعثتها الأمطار نفسها في الديار. وإلى ذلك قال عنترة[67]:

ولقد مررتُ بدَّار عبلةَ بعدما * لعبِ الربيعُ بربعِها المتُوسّمِ
جادت عليه كلُّ بكرٍ حُرّةٍ * فتركنَ كلُّ قرارةٍ كالدِّرهمِ

يذكر عنترة ديار عبلة التي حل الربيع في أرضها، وهطلت الأمطار المحملة بالخير وجاءت بمطر جود، وتركت عبلة تلك الأرض مليئة بالزرع والخصب. وكثيراً ما قد يستخدم الشعراء المطر لتشبيه ريق المحبوب به كما فعل المرقش الأصغر حين شبه ريق حبيبته بماء المزن فقال[68]:

سقاهُ حبُّبي المُزن في مُتهلّل * من الشمس روّاهُ رباباً سواجما
أرتكَ بذاتِ الضالِ منها معاصماً * وخدّاً أسيلاً كالوذيلةِ ناعما

ويبدو أن الحال مع الريح يشبهه الأمطار حيث إن الرياح تنشر رائحة الحبيبة إليهم وتبلغهم سلامها وأخبارها. وهذا ما عبر عنه عنترة في قوله[69]:

يا ريحُ لولا أنّ فيكِ بقيّةٌ * من طيبِ عبلةَ متُّ قبل لقاكِ

وكذلك عد العشاق الناقة مجالاً للتعبير عن تفاؤل وأمل، فالرحلة على الناقة تمثل رمزً للإرادة الإنسانية التي تقتحم الأهوال من أجل تحقيق الآمال. وتلك الصورة التي يرسم أبعادها امرؤ القيس[70]:

فدعْ ذا وسلِّ الهمَّ عنكَ بجسرةٍ * زمُولٍ إذا صام النَّهارُ وهجَّرا

يحاول العاشق ترك ذكرى الظعائن والاشتغال بهن، وأن يسلي نفسه ويبعد الهم بالسفر على الناقة الشديدة السير عندما تكون الشمس في وسط السماء. كما أن بعض الشعراء راح يمني نفسه رؤية المحبوب بعد رحيلها، وهذا ما أمل به مضاض الجرهمي نفسه فقال[71]

خليلي من أمج فأرتعا * على الضالِ من ميّ حتى تَريما
لهوتُ ولم ادرِ حتى بدتْ * لي الشَّمس تحتلُ ليلاً بهيما

وقوله[72]:

أعلّلَ قلبي بالمني ولعلها * تقولُ أبارت لأبن عمْ مقادرهُ
وترثي لمفتون الهوى ولعلها * تصدقُ حُباً صدقتهُ سرائرهُ
يظلُ يراعي الحادثات نهارهُ * فإن غُبنَ عنهُ فالقمير مَسَامرهُ

وهذا ما أكده عنترة فقد علل نفسه بلقاء الحبيبة ولكن بعد الصبر الجميل قائلا[73]:

أعلُلُ بالمُيقلباً عليلاً * وبالصّبرِ الجميلِ وأن عادي

وأنشد[74]:

ويرجى الوصالُ بعد الهجرِ حيناً * كما يُرجى الدُّنُو من البعادِ

وقال أيضاً [75]:

أملتُ خيركَ هل تأتي مواعدهُ * فاليومَ قصَّرَ عن تلقائكَ الأملُ

يتضح من ذلك أن أمل الشاعر في لقاء من يحب لا ينقطع لو بعد حين، وهذا ما فعله قيس بن الحدادي الذي أمل نفسه باللقاء بعد حجه وهو يرى أن بعد لقاءه بها بعد الشتات والبعد سيعم الخير والعمار في الديار، فهو القائل[76]:

وقلتُ لها في السرّ بيني وبينها * على عجلٍ أيّانَ من سار راجعُ
فقالت، لقاءً بعدَ حولٍ وحجَّةٍ * وشحطُ النوى إلا لذي العهدِ قاطعُ
قد يلتقي بعد الشَّتاتِ أولو النَّوى * ويسترجعُ الحيَّ السحابُ اللوامعُ

فالحوار هنا أصبح لوحة طلل بكل صورها وألوانها تؤدي وظيفة خلق الجو الشعري، وتمنح الشاعر القدرة على القول، لأنه يصبح في حالة معاناة شعرية حادة، تمده بالمشاعر التي تمكنه من التنفيس عن كل ما يحتبس في نفسه من أحاسيس وأفكار تدور في ذهنه. إن الشاعر العاشق في العصر الجاهلي بدأ في اتخاذ الرياض والورود والنباتات والزهور والخضرة والماء والنور

الخاتمة:

إن معاناة الشعراء العشاق قد اتخذت أشكالاً ومظاهراً متعددة اختلفت من شاعر إلى آخر. وقد تولدت وظهرت المعاناة نتيجة لظروف وبواعث ومعطيات متعددة في نفس الشاعر، تمثلت في بكائه على الأطلال، وألمه وتحسره وغربته وضياعه، وتظهر تلك المعاناة أيضاً من خلال إقدامه وتحديه في معانته في الحصول على الأمل والتفاؤل من الحب، وما كل ذلك إلا تجسيداً وتعبيراً عما يتحرك في نفس الشاعر من عذاب نتيجة للتجربة الشعورية المؤلمة المتمثلة بالكبت والقهر العشقي.

كما أن خطابات هؤلاء العشاق التي جاءت متنوعة في طرائقها وأساليبها تنم عن متانة السبك وجمال الرصف عندهم. وتعد من الجودة والبراعة ما لا يمكن على أي متلقٍ أن يغفل عنها، لقد نقش هؤلاء العشاق على صفحات أشعارهم كل ما حملته أنفسهم من عواطف وأضافوا عليها من ملكاتهم ومواهبهم الصور المبهرة التي تعبر عن واقعهم الذي صنعوه بأيديهم.

لم يأت غرض الغزل في العصر الجاهلي إلا نتاجاً من العاطفة الجياشة الصادقة من: عزة النفس، والكرم اللذين كانا يملآن صدور الشعراء في ذلك العصر، فضلاً على الحماسة والانفعال القوي، الذي لأزمهم في حلهم وترحالهم منذ نشأتهم الأولى. لذا جاء غزلهم عفوياً صادقاً غير مغرق في الخيال، وظهرت في غزلهم الألفاظ والتراكيب الموفقة المطابقة لمقتضى حالهم، المشتد بشدة الطبيعة من حولهم.

التوصيات:

1. توصي الدراسة بضرورة إجراء عدة دراسات عن أغراض الشعر في العصر الجاهلي لأنه مثل الحياة البدوية بكل مظاهرها، ويعد مصدراً أساسياً مهماً من مصادر تاريخ تلك الفترة. ففيها ظهرت سمات القصيدة العربية الأصيلة.
2. توصي الدراسة بمتابعة الدوافع النفسية والاجتماعية في كل العصور الأدبية، لمعرفة الأسباب التي شكلة شخصية هؤلاء الشعراء في ذلك العصر.

المصادر و المراجع

(1) رغدعبدالنبي، الليل في الشعر العربي قبل الإسلام، رسالة ماجستير إجازتها كلية التربية للبنات –جامعة بغداد 2001: 17.

(2) عروةبنحزام، ديوان عروة بن حزام، شعر عروة بن حزام، تحقيق أحمدعكدي،ط1،الهيئة العامة السورية للكتاب. دمشق،2014م. ص31-30.

(3) كريمالوائلي، الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية، كريم الوائلي،ط2،المكتبة الشاملة،2011م.ص382.

(4) عناد غزوان إسماعيل، المرثاة الغزلية في الشعر العربي،عنادغزوانإسماعيل،مطبعةالزهراء،ط1،بغداد 1974م. ص28

(5) مسلم بن قتيبة الدنيوي، الشعر والشعراء، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدنيوي، تحقيق مفيد قميحة،دارالكتب العلمية،بيروت،ط1412،2هـ- 2000م.ج75-1/74، وانظر (طبعة دار الثقافة) :1/20.

(6) قدامة بنجعفر، نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق محمد عبد المنعم الخفاجي، ط2، دارالكتبالعلمية،1956م. ص134.

(7) الآمدي، الموازنة، للآمدي،تحقيقأحمدصقر،مكتبةالخانجي،بيروت،ط1995،1م.ج1/412.

(8) بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبي الحسن علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، لبنان، ط1383،1ه - 1963م.،ج1/225.

(9) المرقش الأكبر، ديوان المرقش الأكبر عمرو بن سعد، دار صادر، ط2، بيروت، 1998م.، ص73.

(10) الضامن،عشرة شعراء مغلون، حاتم صالح الضامن، مطبعة وزارة التعليم العالي، ط1، بغداد،1990م، ص134.

(11) المرقش الأصغر،ديوان المرقش الأصغر ربيعة بن سفيان بن سعد بن مالك، دار صادر، بيروت، 1998م.، ص78.

(12) عنترة بن شداد، ديوان عنترة بن شداد،شرح الخطيب التبريزي، دار الكتاب العربي، بيروت،ط1412،1ه 1992م.ص65.

(13) المصدر نفسه،ص72.

(14) شعر المرقش الأكبر، ص78.

(15) امرئ القيس، ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار المعارف، مصر1958م. ص92.

(16) المصدر السابق، ص91.

(17) المصدر نفسه، ص91.

(18) ديوان امرئ القيس، ص92.

(19) المصدر نفسه، ص91.

(20) ديوان عنترة بن شداد، ص182.

(21) دراسات في الأدب الجاهلي، ص103.

(22) ديوان امرئ القيس،ص90.

(23) ديوان المرقش الأكبر: قفقاف: اضطرابالحنكين واصطكاك الأسنان، وصالبه: شدة حرارته مع رعدة.

(24) السيد العباس، نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس، السيد العباس بن علي بن نور الدين الحسيني، مطبعة الحيدري، ط1، بغداد،1417هـ .ص82.

(25) البناءالفني للقصيدة العربية ، ص26.

(26) شعر المرقش الأكبر، ص88.

(27) ديوان عنترة، ص98.

(28) المصدر نفس، ص87.

(29) المصدر نفسه: ص53-52.

(30) ديوان امرئ القيس، ص114.

(31) البناء الفني للقصيدة العربية، محمد عبد المنعم خفاجي، ص34. فأبن خذام كان سابقا لعصر امرئ القيس وهو: شاعر جاهلي لا ندري من أمره شيئاوقد اختلف في اسمه.

(32) العشاق الثلاثة، زكي مبارك، ط1،مطبعة مؤسسة هنداوي للتعليم والنشر،القاهرة، 2012م ،ص23.

(33) ديوان عنترة، ص37.

(34) ديوان امرئ القيس، ص242-240.

(35) شعر عروة بن حزام، ص48

(36) انظر مجلة الطليعة الأدبية، مقال بعنوان الحب بين تراثين، كتبه ناجية مراني، العدد6، 1/6/1980 ص30

(37) ديوان عنترة،ص209-207.

(38) شرح ديوان،عنترة، ص126.

(39) المصدر السابق، ص 72.

(40) المصدرالسابق، ص 66.

(41) شعراءالنصرانية،لأبلويس شيخو،بيروت،ط1، مطبعة دار المشرق،1890م. ص145.

(42) المصدرالسابق، ص 145.

(43) التيجان في ملوك حمير، وهبن منبه،ط1، المطبعة الوقفية، 1347هـ .ص195

(44) ديوان امرئ القيس، ص103.

(45) شعر المرقش الأصغر، ص132.

(46) تزين الأسواق في أخبار العشاق، داؤد الأنطاكي،دار مكتبة هلال ــ بيروت 1984م. ص141.

(47) الأغانى،أبوفرج الأصفهاني،تحسمير جابر،مكتبة دارالفكر،بيروت،ط2، 2002مص 13/76

(48) عشرة شعراء مقلون، ص44.

(49) شرح مقامات بديع الزمان، أحمد بن الحسن بن الحسين بن يحيي بن بديع الزمان الهمذاني،تحقيق محمد عبدو،ط2،دارالكتب العلمية،1426هـــ 2005م ، ص 462.

(50) الحب بين تراثين، ص115.

(51) ديوان امرئ القيس، ص117.

(52) شرح ديوان عنترة: ، ص213 .

(53) الأغاني، ج4/253.

(54) ديوان عنترة،ص85 .

(55) الغزل العذري دراسة في الحب المقموع، منشورات اتحاد الكتاب العرب، يوسف يوسف، 1978م، ص39.

(56) شرح ديوان عنترة، 39.

(57) شرح ديوان عنترة، ص44.

(58) المصدرالسابق، ص56.

(59) شعر المرقش الأصغر، ص67.

(60) تزيين الأسواق، ص 143.

(61) عشرة شعراء مقلون، ص94.

(62) ديوان امرئ القيس، ص43.

(63) المصدرالسابق، ص75.

(64) شعر المرقش الأكبر، ص72.

(65) شعر المرقش الأصغر، ص46.

(66) ديوان الحماسة، أبي زكريا يحي بن علي الخطيب التبريزي، تح محمد محي الدين عبد الحليم، مكتبة الخانجي، ط2، ج2/ص80.

(67) شعر المرقش الأكبر، ص48.

(68) جمهرة أشعار العرب، ص440.

(69) شعر المرقش الأصغر، ص86.

(70) شرح ديوان عنترة، ص 98.

(71) ديوان امرئ القيس، ص63-62، جسرة : الناقة النشيطة.

(72) التيجان، ص192.

(73) المصدرالسابق، ص 193.

(74) ديوان عنترة، ص.

(75) المصدرالسابق، ص 43.

(76) المصدرالسابق، ص75.